النحاة والاهتمام بلغة الشعر

من الظواهر التى تتضح فى كتب النحو — بأدنى تأمل — الاعتماد الأساسى على الشعر ، إذ يكون وحده العنصر الغالب فى دراسات النحاة المتقدمين والمتأخرين من بين مصادر الاستشهاد ، وذلك باستثناء « ابن مالك » الذى اعتمد على الحديث ، وأبى حيان النحوى الذى اهتم بإيراد الكثير من اللغات القبلية فى كتابه « ارتشاف الضرب » ، وابن هشام الذى وجه عناية خاصة لآيات القرآن ، وهذه الظاهرة السابقة تغلب فى كتب النحو وحدها ، ولم تكن كذلك فى « معاجم اللغة » ويبدو أن السبب فى ذلك أن أبحاث المعاجم تتجه لمعانى الكلمات المفردة دون حاجة كبيرة إلى إيراد النصوص التى استقرئت منها ، أما النحاة فاعتمادهم على الجمل المفيدة ، فكان من الضرورى لهم أن يوردوا النصوص كاملة ، وقد جاء معظمها شعراً .

على أنه ينبغى ألا يفهم من ذلك أن الشعر قد تفرد وحده بالدراسة ، فقد كان للنثر أيضاً وزنه ، لكنه — كما بدا لنا فى كتب النحو — وزن أخف كثيراً مما كان ينبغى أن يكون له ، إذ فاز الشعر بنصيب الأسد من الدرس والنقاش ، وكان له الاعتبار الأول فى هذا المجال .

وأهم ما ترتب على ذلك المظهران التاليان :

(ا) الصبغة الشعرية فى دراسة النحو

سبق باختصار أن الشعر من له لغته الخاصة ، وزيادة العناية به فى النحو أدت إلى تصورات جانبها التوفيق ، سواء من حيث قيمته ومهمته ، أو إلزام جله وصيغه نهجاً يصدق عليها ما يصدق على النثر ، مع أن لكل منهما مستوى خاصاً من حيث الاستعمال وطرائق التعبير .